فريد الأطرش

فنان أحبّ كل شيء

بقلم : محمود الشريف

لا تسألونى عن بدايته . .

فقد كانت بداية فريد الأطرش متواضعة . . وأكثر من متواضعة . لم يكن من بين مجموعة أصدقائه ورفاقه الأول – وأنا من بينهم – من تنبأ له بمستقبل فنى . . أو بأى مستقبل على الإطلاق ! كان فريد من البداية مدللا جداً . . وكان بدوره يحب من الذين حوله أن يدللوه تماماً . . وكان إقباله على الحياة منقطع النظير . إن إنساناً ينغمس فى الحياة بهذا الشكل ، لا بد أن يجعل أصدقاءه يتساءلون : متى يتفرغ للعمل ؟

ولقد ظل هذا السؤال ملتصقاً بفريد الأطرش من أول يوم حتى آخر يوم فى حياته . فلم يكن فريد يخطط لحياته أبداً . . وحتى إذا حدث وخطط لها . . فإن لكل شىء فى خططه مكاناً . . إلا العمل !

ولا تسألونى عن فنه . .

فقد كان فريد الأطرش ، ولا يزال ، يملأ بالفن كل الأسماع والقلوب . . على مدى أجيال وأجيال .

إن بعض الناس يولدون وفيهم حرارة المجد بقدر معلوم . . فيمضون فى الحياة قدماً صوب قمته . . فلا تلبث الأشواك أن توجعهم وتدمى أقدامهم . . فيسقطون صرعى فى الطريق الدامى . . أو ينحرفون طلباً للخلاص والنجاة . . تائهين فى الطريق

الآخر المجاور تماماً لطريق المجد . . أما القليلون الذين يصمدون من هؤلاء . . فيمضون فى الطريق . . تدمى الأشواك أقدامهم أحياناً . . وتتكسر الأشواك تحت أقدامهم أحياناً . . ولكنهم يصلون حتماً إلى نهاية الطريق .

وهذا هو ما حدث لفريد الأطرش .

كنت قد حضرت من الإسكندرية إلى القاهرة فى نهاية الثلاثينات ، وبتوصية من صديق لى يعرف السيدة بديعة مصابنى . . استطعت أن ألتحق مطرباً بفرقتها . . وأن أبدأ فوراً فى الاشتراك فى استعدادهم للموسم الشتوى . . وهو الموسم الذى كان على الأبواب وقتها . . وكان استعدادهم له يجرى على قدم وساق .

ومن بين هذا الحشد الهائل من مثلين وممثلات . . وموسيقين وراقصات . ومطربين وعازفين ومطربات . . لفت نظرى شاب فى العشرين من عمره . . وسيم الطلعة . . نبيل القسمات . . حاد الملامح .

كان هذا الشاب هو فريد الأطرش .

وكنت أراه وسط هؤلاء . . متأبطاً عوده دائماً فى فخروثقة واعتزاز.

كان نجوم الغناء فى صالة بديعة وقتها أربعة : إبراهيم حموده . . بصوته الجهورى ، وأناقته الزائدة ، وجمهوره العريض . . ثم محمد عبد المطلب . . بصوته العذب النفاذ . . وأغانيه المحبوبة ، وشعبيته الساخنة . . ثم فريد الأطرش . . بصوته الناشئ غير المستقر بعد . . ووسامته الروحية . . وأغانيه السورية واللبنانية ، وغيرها من الألوان الشعبية الفولكلورية ، وبعزفه الممتع المعجز . . وبجمهوره الذى ما زال بعد فى بداية نموه .

أما رابعهم فكان سيد فوزى . الذى كنا نسميه وقتها « مطرب الطوارئ » . . فهو المطرب الاحتياطى دائماً !

وعند انضمامى للفرقة عند بديعة مصابنى . . كان طموحى قد صور لى بأننى سوف

أكون بغير شك النجم الأول فى عالم الطرب .

ولكن التصور شىء . . والحقيقة شىء آخر .

لقد تحولت من مطرب إلى عازف عود متواضع . . وفى أغلب الأحوال كان يسند إلى بعض الأدوار الثانوية لكى أقوم بتمثيلها فى الروايات والاسكتشات .

ولم يكن فريد الأطرش يتم التعامل معه فى هذا الجو كله باعتباره مطرباً . . وإنما كانت صفته البارزة فيه وقتها هى أنه عازف على « العود » . إنه ، فى معظم الأحيان ، يصعد إلى المسرح لكى يقدم عزفاً بمصاحبة المطرب الأول للفرقة . . وهو إبراهيم حمودة ربما من أجل هذا كان فريد الأطرش مقلاً وقتها فى ظهوره على المسرح . . بل إنه لم يكن داخلا فى البرنامج الثابت والمنتظم للعمل .

وكانت السيدة بديعة مصابنى تدلله . . وتخصه بمعاملة متميزة . . ولا تضيق عليه لهذا تركت له حرية الظهور عند ما يشاء . . وفى الوقت الذى يريد . . إننى عرفت فيما بعد أنها تترك له – بهذه الطريقة – فسحة من الوقت لكى يمارس دراسته الموسيقية والفنية فى المعهد صباحاً . . وبعد الظهر عند أستاذه الموسيقار الإيطالى . . الذى كان فريد يتلقى عنده وقتها دروسه الخصوصية فى الغناء .

وفى الوقت نفسه كان فريد كثير التردد على مقهى المطرب محمد العربى . . وكانت تربطهما صداقة حميمة . . فكان فريد يجلس الساعات الطوال وهو يستمع لصديقه ويحفظ عنه طريقة أدائه وأغانيه ومواويله البلدية والشعبية الأصيلة .

كان فريد من بدايته شغوفاً بالموسيقى . وبالغناء . . والرقص . . والحياة . . والناس . . والأشياء ، وكأنه كان منفذ وصية مدام « مارى كروللى » التى تقول :

« حاول أن تبتسم . . فإذا كنت وحيداً فى الحياة فلا أقل من أن تغنى أو تترنم بأحد الألحان . . مثل فى الحياة دور الرجل السعيد الذى يملك مليوناً من الدولارات وعشرات السيارات الفارهة . . أضحك من كل قلبك . . وأحب من كل قلبك .

أحب الزهور والشمس والأمطار والبحار . . وأحب كل شيء ، حتى الرذيلة والشقاء والدموع والموت . . . » !

لم تكن هناك فرص عملية كثيرة لعقد صداقة بين فريد الأطرش وبينى . . ولكن ، كانت هناك ألفة بيننا . . تنبعث من زمالة ثلاث سنوات مستمرة . . جعلت الألفة فى النهاية دائمة . . والفهم مشتركاً . . والتفاهم قائماً .

كان تفاهماً مقروناً بالمحبة والتقدير والاحترام والأهم من ذلك ، بالاستمرار .

كان فريد إنساناً غير عادى فى كل شيء . . بل إنه كان مجموعة ضخمة من المتناقضات . غير أن الصفة الغالبة على كل هذه المتناقضات كانت مركزة فى جملة واحدة . . وهى أن فريد الأطرش كان إنساناً له نبل الفارس . . ورقة الفنان .

إننى أذكر له موقفاً بالذات حدث معى . . وهو موقف يؤكد ما سبق أن قلته عنه فى البداية .

لقد حدث ذات مرة أن عهد إلى بدور غنائى فى اسكتش غنائى عنوانه « قلم المرور » . . من تأليف الروائى المعروف الأستاذ أمين صدقى ، وتلحين الأستاذ عزت الجاهلى .

وفى ليلة الافتتاح وقفت داخل المسرح استعداداً للدور . لقد ارتفع الستار رويداً رويداً . . ثم بدأ الأوركسترا يعزف المقدمة الموسيقية استعداداً للغناء . .

ولكن الذى حدث لحظتها هو أننى لم أعثر على بداية اللحن ، الذى تبخر تماماً من رأسى . إننى – فجأة – لم أعد أذكر منه جملة واحدة على الإطلاق !

ولك أيها القارئ العزيز أن تتصور موقفى . . ومدى الورطة التى وقعت فيها . . والارتباك الذى أحسست به . . وأنا اقف أمام الجمهور وجهاً لوجه .

لقد راح الأوركسترا يكرر اللازمة الموسيقية مرة بعد الأخرى . دون جدوى . إننى حاولت وحاولت أن أخرج من تلك الورطة . . بلا فائدة . لقد أصبحت واقفاً

فى جمود يغلبنى الذهول . . وتسيطر على المفاجأة . ويتصبب العرق فوق وجهى . بغير أن أنجح فى أن أقول كلمة واحدة !

وبينما أنا على هذا الحال . . إذ بى أسمع فجأة صوتاً قادماً من خلفى . . يدس لى ويصب فى أذنى بداية اللحن . . !

وفوراً . . استطعت أن ألتقط منه البداية . . وبدأت أغنى . . والصوت خلفى مستمر فى مساندتى . . إلى أن انتهيت من الغناء بسلام . .

وفى النهاية ، عند نزول الستار ، رحت أتلفت حولى . . وإذا الصوت القادم من الخلف هو صوت فريد الأطرش . . الذى رأيته ما زال مستمراً فى وقفته . . غارقاً فى الضحك . قائلا لى مداعباً : « علقة تفوت ماحد يموت يا أبو حنفى » !

إن تلك الصورة الإنسانية تقفز إلى ذهنى فوراً . . بمجرد أن أتذكر فريد الفنان الإنسان . . والإنسان الفنان .

إن فريد لم يلحن لحناً واحداً فى حياته لفرقة بديعة . . فلم يكن هناك تسليم بعد بموهبته الموسيقية . ومع ذلك كنت تراه يحتو على – ويرعى – جميع الألحان التى تؤدى على المسرح . . وكأنها جميعاً من تلحينه ، إنه – إذا لم يكن يعزف بعوده فوق المسرح – كان هناك دائماً بين الكواليس . . مساهماً بصوته . . مساعداً للجميع . . ومشجعاً لهم . . بروح سخية وقلب كبير . . مدفوعاً بحبه للفن . . الذى أعطاه عمره فوهبه الخلود .

إننى أذكر أن فريد الأطرش جاء ذات مساء . . وفى يده نوتة من قطعة موسيقية . . وذهب بها إلى «مسيو دافيد» رئيس الأوركسترا . لقد وضع النوتة أمامه . . وطلب منه أن يعزفها . . وكان ذلك وقت الاستراحة .

وسمعت السيدة بديعة العزف . . ولم تتمالك نفسها من فرط المتعة . . فأسرعت وراحت تسأله : ما هذا يا فريد ؟

رد فريد عليها قائلا : هذه أحدث موسيقى لأحـدث رقصة ظهرت فى العالم اليوم .

كانت الرقصة حديثة جداً فعلا ، وكان اسمها « لاكوكارتشا » وقد أصر فريد لأول مرة على أن يقوم بدور الراقص . . وأن يقدمها للجمهور فى شكل ثلاثى يشترك هو فيه مع السيدة بديعة . . ومع مدرب الرقص « مسيوإيدى » .

وفعلا ، كان هذا هو ما حدث ، وقد لاقت الفكرة نجاحاً منقطع النظير .

كان فريد فناناً عنيداً طموحاً لا يعرف اليأس ولا التردد ولا يعترف بالمستحيل . كان يتخذ من عمله وسيلة وهدفاً ومتعة يعوض بها كل شيء آخر . وكان لديه الإصرار على الاستمرار . . برغم المرارة التى كان يحس بها بسبب المناخ الذى يعمل فيه وهو غير راض عنه . . والذى وجد نفسه مضطراً لأن يعمل فيه من أجل لقمة العيش .

إن البلابل المغردة لا بد أن تهبط من السماء لـكى تمرغ أنفها فى التراب والطين تبحث عن طعامها . وبرغم أنها تحلق فى الفضاء وتسبح بين السحاب والغمام فإن لها هى الأخرى لحظاتها من اليأس والتردد والتوقف عن الغناء .

ولكن فريداً لم يتوقف أبداً عن الغناء .

لقد كان بطبعه سهلا متسامحاً لا تغير صفاءه الأمور . . متواضعاً إلى أقصى درجات التواضع . . الفن عنده رسالة ومسئولية وكرامة . إن كرامة الفنان عنده مصونة لم تمس . . ما دام الفنان لا يمد يده لأحد .

ولم يكن فريد ، رغم تعلقه منذ بدايته بالغناء ، يرى أى غضاضة فى أن يقوم بدور العازف على العود لمن هم أقل منه شأناً . . ما دام يريد ذلك .

ولقد كانت لديه قدرة كبيرة على إخفاء ألمه وكظم غيظه . . لكن بشرف وبغير حقد ولا حسد ولا رياء . . وذلك هو الذى جعله يرتفع فوق كل ما صادفه فى حياته من نكسات وفواجع . إن فاجعة واحدة فى حياته – هى موت شقيقته المرحومة أسمهان –

كانت وحدها كفيلة بتحطيمه إلى الأبد . . وبخاصة أن أسمهان لعبت دوراً حاسماً فى شق طريق المستقبل أمام فريد فى بدايته .

ولكن فريداً ضرب ، فى تحمله لتلك الفجيعة ، المثل على صدق القول المأثور : إن العبقرى هو الذى يتأثر من البؤس بالعمل . . ومن الحب بالفن . . ومن المرأة بالمجد . . ومن الموت بالحياة . .

وقد لا يعرف الكثيرون أن بعض عمالقة العازفين الآن كانوا يعملون فى تلك الفترة ، – وما تلاها – عند بديعة مصابنى . . خصوصاً عند ما قرر فريد أن يغنى فى حفلتى الماتينيه كل أسبوع . من هؤلاء العازفين الأساتذة أحمد الحفناوى . . وأنور منسى . . ويعقوب طانيوس . . وإبراهيم عفيفى . . وغيرهم . ولقد ظل فريد على وفائه لهم – وصداقته معهم – بعد أن شق طريقه أخيراً بعيداً عن كازينوبديعة . . بالحفلات الشهرية فى الإذاعة وغيرها . . وفى جميع أفلامه السينمائية التى أنتجها . . كان دائماً يتمسك بهم . . من أول لحظة حتى آخر لحظة فى حياته .

ولقد كان آخر ما غناه فريد على مسرح بديعة هو اشتراكه كواحد من ثلاثى يضم بديعة وإبراهيم حمودة باسم « الدكتور والمحامى وبدعدع » !

وكانت أول فرصة فنية حقيقية لفريد . . وهى الفرصة التى كشف فيها عن مواهبه الفذة كعازف عود . . عندما قدم الأستاذ مدحت عاصم « الفرسان الثلاثة » . . وهى معزوفة بأساليب هرمونية وكونترباصية . . لم تكن قد دخلت بعد إلى عالم الغناء العربى .

وكان « الفرسان الثلاثة » هم فريد الأطرش . . وفريد غصن . . ومدحت عاصم .

وقد تلى ذلك الحفل الذى أقامته الإذاعة عند قاعدة الهرم . . وقدمت فيها فقرات ترفيهية وفنية مختلفة . وكان نجم الحفل هو فريد الأطرش عندما غنى « عشك يابلبل دا جنة » وغيرها من الأغانى الحديثة فى ذلك الحين .

وكانت آخر كلمة قالها فريد لبديعة عندما اختلفا معاً بسبب امتناع فريد عن السفر مع الفرقة إلى شمال أفريقيا هى : اسمعى . . الفن له كرامة . . وأنا شاب على أبواب الحياة . . وكرامتى فى الذروة .

وبذلك بدأ فريد سلم المجد . . عندما انطلق فى عالمه الرحيب . . لكى يقدم للعالم العربى أروع الألحان وأعذب الأناشيد وأحلى الأغنيات . . ثم شارك فى نهضة السينما بإنتاجه الرفيع . . حتى أصبح علماً من أعلام النهضة الفنية ورائداً من أعظم الرواد الذين أثروا حياتنا الموسيقية والغنائية .

ومع ذلك كله . . فإن أى تقييم لفريد الأطرش لا يمكن بأى حال أن يغفل من حياته الأثر الفنى والإنسانى . الذى تركته فيه تلك الفترة الأولى المبكرة من عمله مع فرقة بديعة مصابنى .

وإذا لم تكن لتلك الفترة أية ميزة سوى أنها أكدت إحساسه بذوق الجمهور . . فإنها تكون قد حققت الفائدة فى حياة فريد . . بمثل ما حققت فى حياة الآخرين الذين بدءوا مع فريد البداية نفسها .

أما القيمة الفنية الحقيقية لفريد الأطرش فلم تبدأ طبعاً إلا مع خروجه من فرقة بديعة مصابنى . .

لقد كان أول لحن حقق له النجاح والانتشار معاً هو لحنه المشهور « ليالى الأنس فى فيينا » . . الذى غنته أسمهان فى فيلم « غرام وانتقام » .

كانت أسمهان هى فى الواقع نموذجاً رائعاً للأخت التى تشغل نفسها تماماً بمستقبل أخيها . . لقد كانت هى أكثر من أحس بفريد وفهمه وعرف تماماً حجم موهبته . . وبالتالى حجم الفرصة التى يحتاج إليها إخراج تلك الموهبة إلى الناس .

كانت أسمهان موهبة صوتية فذة . . وكانت تمثل فعلا لوناً صوتياً وغنائياً متميزاً ، لم يألفه الناس من قبل ، مع أنهم بمجرد أن يسمعوا غناءها كانوا يألفونها فوراً . . إن

أسمهان المطربة كانت تشجى الناس حقاً . . وتؤثر فيهم تماماً . . ومن يسمعها مرة . . لم يكن يقدرله أن ينساها بعد ذلك مطلقاً .

وقد ساعدت أسمهان أخاها فريداً مرتين : مرة بصوتها الناجح الممتع المنتشر . . ومرة بحجم الفرص التى كانت تقتنصها لفريد وتدفعه هو أيضاً إليها .

من أجل هذا كانت خسارة فريد بموت أسمهان خسارة مضاعفة . إنها خسارة عاطفية لأخت . . وفوق ذلك خسارة عاطفية لشريكة فن ومستقبل .

وكما ذكرت من قبل ، فإن فريد استطاع مع الوقت والإرادة ، أن يتغلب على تلك الفجيعة الشخصية ويدفنها فى داخله . . منطلقاً لتحقيق ذاته فى المجال الفنى العريض والخصب الذى انشق أمامه وشقه لنفسه .

إن موهبة فريد الموسيقية ، التى اعترض كثيرون عليها فى البداية ، قد بدأت مع العمل والنجاح والزمن تتألق تماماً . . بحيث إننا نعلم جميعاً مدى النجاح الشعبى الذى حققته ألحانه مثل « أول همسة » و« الربيع » و . . أخواتها .

وربما تكون تلك الأغانى هى من الحالات القليلة فى الغناء العربى التى لم ينتقص الزمن من حلاوتها ولا من عذوبة موسيقاها . . بل أضاف إليها جمالا فوق جمال .

أما فريد كصوت يطرب الأسماع والأفئدة . . فلقد كان يتميز فى الواقع بصفات ممتازة كثيرة . . لم يكن يقلل منها طابع الحزن الذى اتسم به سنوات طويلة .

إن المستمع يستمع إلى صوت يغنى لأنه يعطيه فى الحقيقة متعة معينة : إنه يشعر بالفرحة معه . . أو بالتفاؤل . . أو بجمال الدنيا . . أو بإشراق الحياة . . . أو بحلاوة المستقبل . . أو بالنشوة . . أو بالمرارة . . وفريد الأطرش لم يكن يتعمد المرارة فى صوته وأغانيه ، لقد كانت المرارة موجودة فعلا ، وبأحجام كبيرة ، فى حياة فريد . إنه كان يحاول طبعاً التغلب عليها . . عن طريق النوع الخاص من الحياة الذى اختاره لنفسه . . حياة فيها من المتعة والانشراح والغرام والحب والتفاؤل والتسلية واللهو ما يجعل الإنسان

يتساءل فى النهاية : متى إذن يجد فريد الأطرش وقتاً للعمل ؟ أو . . من أى ثقب فى حياته الصاخبة خرجت كل تلك الأغانى والألحان والاستعراضات ؟

ولكن . . ذلك كان مجرد واحد من المتناقضات الكثيرة التى احتشدت بها حياة فريد الأطرش ، منذ نفس اللحظة الأولى التى عرفته فيها .

ومنذ عرفت فريداً كعازف ومطرب وملحن موهوب . . فإننى عرفت فيه أيضاً «المستمع الموهوب» ! إنه يعرف بالضبط – بإحساس الفنان الحقيق – كيف يستمع لأعمال غيره . . وكيف ينفعل بها بغير أن تؤثر هى عليه . . وكيف يرى فيها نواحى الجمال والمتعة قبل أى شىء آخر . إنه لم يكن يجد غضاضة أبداً فى أن يعترف لغيره مرة بأنه تفوق عليه . . أو بأنه بلغ القمة فى عمل من الأعمال . . ذلك لأن فريداً فى داخله لم يكن غيوراً بأى حال من الأحوال . . ولا كان حاقداً أو شريراً أو خبيثاً . . وبعكس هذا كله . . كان فريد طيب القلب دائماً . . نقى الضمير دائماً . . صافى النفس دائماً . .

* * *

وأخيراً . .

إننى لا أظن أن هناك من ينكر أن الذين جاءوا بعد سيد درويش قد أضافوا الكثير . . وعمقوا الكثير . . وقدموا الكثير . . وطوروا الكثير . .

ولسوف يأتى غيرهم . . لكى يضيفوا ، ويعمقوا ، ويقدموا ، ويطوروا الكثير أيضاً . .

فمن غير المعقول إذن أن يقف التقييم الموسيقى أو الفنى عندنا . . عند سيد درويش . . وإلا فإن معنى ذلك هو الحكم من الآن باستحالة تطوير الغناء العربى أو تجديد الموسيقى الشرقية .

وليس من شك فى أن الذين جاءوا بعد سيد درويش لم يكونوا بأى حال من الأحوال نسخاً منه . . ولا كانوا صدى لأحد ممن سبقهم . . إنهم – فى الحقيقة – استطاعوا أن يقفوا بفنهم إلى جانب من سبقوهم بما قدموه من أعمال جديدة تحمل لون وطعم ومذاق وإبداع جيلهم هم .

وفى هذا المجال . . فإن فريد الأطرش هو بغير جدال واحد من هؤلاء . .

محمود الشريف